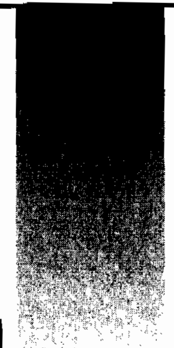


الهمداني في بداية سلطة همدان على اليمن

عباس الهمداني (*)

ترجمة: د. سلوى المؤيد

قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة صنعاء

ما سأقوله اليوم لا يستند إلى وثائق أو مصادر معلومات أصلية، ولكنه عبارة عن قراءة لما أصبح يعرف كحقائق، وحتى في هذه القراءة فقد اعتمدت كثيرا على مقدمة القاضي محمد الأكوع لكتاب الهمداني (الإكليل، الجزء الأول)، وكذلك (مقدمة العالم حمد الجاسر لكتاب الهمداني "صفة جزيرة العرب"). وسوف أحصر نفسي مبدئيا في المدة من عصر الهمداني (280- 350هـ) إلى الاحتلال الأيوبي لليمن، أما استخدامي لمعلومات عن مدة متقدمة أو متأخرة فستكون فقط لاستكمال موضوع النقاش. إن ورقة قصيرة كهذه تحتم عليّ أن أكون انتقائيا جدا. وللمرة الثانية، باعتباري غير متخصص في الهمداني فإن هدفي من وراء تقديم هذه الورقة هو اختبار وجهة نظري الاستكشافية مع المتخصصين للمراجعة والتطوير.

إن أهم ما يميز المدة موضع الاهتمام هو الرغبة الملحة لتقوية اتحاد همدان الكبرى التي اتضحت من خلال موقف الهمداني نفسه ومواقف الدول اليمنية التي حكمت من قبل جماعات متعددة من همدان.

(*) العنوان الأصلي: **HAMDANI, Abbas.** al-Hamdàni the outset of the domination of the Hamdàn over Yaman, *in* ABDALLAH, Yusuf Mohammad, (Ed.), ***al-Hamdàni a Great Yemeni Scholar : Studies on the Occasion of his Millennial Anniversary***.Sana'a : Publications of Sana'a University, 1986.pp 159- 167

إن عصر سقوط الخلافة المركزية الناتج عن إسقاط الأسرة الأموية الحاكمة، قد شهد أيضا انقسامات بين القوى المعارضة، التي تحالفت للثورة على الأمويين. وقد عمد أحد الأطراف وهو الطرف العباسي الذي انتزع السلطة إلى تحويل مركز إدارة الدولة إلى بغداد.

عاش أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني (280- 350هـ) في العصر الذي كانت اليمن قد بدأت مرحلة الاستقلال عن بغداد. دخلت اليمن في مرحلة من الفوضى قامت خلالها حركات للاستقلال من قبل عدد من الأسر مثل أسرة يعفر الحوالي وأسرة ابن زياد. أيضا حاولت عدد من التيارات الفكرية الدينية مثل الزيدية والفاطمية الإسماعيلية تزعم الحركة اليمنية نحو الاستقلال، وكان من الواضح أن الدعم القبلي يشكل أمر حاسما لنجاح أي طرف من الأطراف. كانت قبيلة همدان - أحد أكبر قبائل مرتفعات اليمن- تنتشر في الجزء الشمالي والشرقي والغربي من صنعاء، بل كانت تتحكم في توازن القوى في المنطقة، لذلك كان من المحتم أنها ستلعب دورا كبيرا على الساحة اليمنية.

كان الهمداني في الخامسة عشرة من عمره عندما وقعت المعركة الدامية التي عرفت باسم (معركة غرق) في الجوف حوالي سنة 295هـ، وكانت بين بكيل- فرع همدان- والتي كان الهمداني نفسه ينتسب إليها، وبين القرامطة أتباع ابن الفضل. كانت قبيلة بكيل تسكن شرق صنعاء إلى الجوف، ويتزعمها الدعام بن إبراهيم، وهناك أيضا كانت تسكن أسرة الهمداني قبل انتقالها إلى صنعاء. لقد أورد الهمداني أن 400 شخصاً من القرامطة قتلوا في (معركة غرق)، وأن تلك المعركة مثلت أكبر هزيمة في تاريخ قرامطة اليمن، وقد نظم الهمداني قصيدة شعرية في الاحتفاء بذلك النصر الذي حققته بكيل. (الإكليل10/179- 185)، وتظهر القصيدة بوضوح الموقف العدائي للهمداني ضد القرامطة في اليمن، كما تظهر مشاعر الفخر بقبيلته، والتي كانت قد نمت بداخله منذ مراحل مبكرة من عمره.

من المعروف أن الهمداني ولد في صنعاء، بعد ذلك انتقل إلى صعدة مع عائلته، التي كانت تهتم بالحجاج المتجهين إلى مكة، ومن المعروف أيضا أن الهمداني تلقى تعليمه في مكة، ثم عاد إلى صعدة سنة 307هـ، حيث بقي بها العشرين سنة اللاحقة من عمره (مقدمة حمد الجاسر للصفة).

في صعدة كانت الدولة الزيدية قد تأسست على يد الإمام يحيى بن الحسين الحسني العلوي المعروف بالهادي إلى الحق. وكان يقودها في زمن الهمداني، الإمام الناصر لدين الله. كانت قبيلة همدان لا تحب تحالف الناصر مع عناصر غير يمنية مثل الشريف الحسين بن علي بن الحسن القاسمي الرسي، وأبو الحسن بن علي الأسد السلامي، وأيوب بن محمد اليرسمي الذي كانوا من إيران[1]. كان الهمداني ضد تدخل هؤلاء في شؤون القبائل اليمنية، وكتب الشعر في مهاجمتهم، لذلك فقد تآمروا عليه ليتم القبض عليه بتهمة أنه أساء إلى النبي محمد (ص). أرسل الهمداني إلى صنعاء إلى حاكمها الحوالي أبو الفتوح الخطاب بن عبد الرحمن بن يعفر حيث أدخله السجن متبعا نصيحة عمه أسعد بن يعفر، الذي بدوره كان على علاقة جيدة بالإمام الزيدي الناصر. وقد أبقي الهمداني في السجن من سنة 319هـ إلى سنة321هـ، ما يقرب من سنتين. كان هذا مما أوغر صدر الهمداني ضد الزيدية واليعفريين، وجعله فيما بعد يكتب منتقدا الإمام الناصر، بل يدعي أنه نفسه كان المسئول عن موته، أي موت الناصر، وموت أخيه الحسن في معركة الباطن.

ينسب إطلاق سراح الهمداني من السجن إلى تدخل الناصر أو ابن زياد صاحب تهامة، إلا أن العداء الذي سيبديه الهمداني لكلا منهما لاحقا، لا يؤيد هذا الطرح، بل الرواية الأكثر مصداقية هي التي تقول بأن الهمداني هرب من السجن، وذهب هذه المرة إلى ريدة، مركز قبيلة همدان التي كان يتزعمها أبو جعفر أحمد بن محمد بن الضحاك، الذي تصفه همدان بأنه: "سيد همدان في عصرنا وصاحب الوقائع والأيام، وهو الذي يمجده الهمداني ويقيد أيامه، وهو منه خِلّ وصاحب، وشهد مائة وقعة وستا، كان أكثرها بين حزبه وبين يحيى بن الحسين العلوي، وأسر ابنه محمد بن يحيى يوم إتوة."

عقدا ابنا الناصر محمد المرتضى وأحمد الناصر[2]اتفاقية سلام مع ابن الضحاك، أما ابنه القاسم بن الناصر فقد عارضه، لذلك فقد حارب الضحاك ضده وقتله سنة 344هـ، وكان الهمداني نفسه قد اشترك في العديد المعارك التي دارت بين الطرفين إلى جانب الضحاك. لم يلبث ابن الضحاك أن قتل سنة 345هـ.

(1) هنا خطأ من الكاتب في اعتبار هؤلاء الأشخاص من إيران؛ القاسمي الرسي من الحجاز، والسلامي واليرسمي من اليمن. (المترجمة)

(2) هنا خطأ من الكاتب في أسماء ابني الناصر، الذين عقدا سلاما مع الضحاك وهما يحيى بن أحمد الملقب بالمنصور، والحسن بن أحمد (العلوي، سيرة الهادي، 408؛ ابن الحسين، أنباء الزمن، 116). (المترجمة)

أصبح من الواضح أن الهمداني أمضى معظم حياته من سنة 321هـ إلى سنة 350هـ في ريدة، أي ما يقرب من ثلاثين سنة وفيها كتب معظم مؤلفاته، على الرغم من ظروف الصراع والتنافس المستمر بين ابن الضحاك والزيدية في صعدة، وبنو يعفر في صنعاء قد أثرت عليه بشدة. الأسرة اليعفرية أسرة أرستقراطية عريقة في التاريخ اليمني تتحدر من التبابعة، ولكنها كانت حميرية الأصل وليست همدانية. وإضافة إلى ذلك كانت الأسرة اليعفرية هي أول أسرة حاكمة تستقل عن الخلافة العباسية. و ابن الفضل الذي نازع اليعفريين الحكم على صنعاء، وتوفي سنة 303هـ، كان أيضا من أصل يمني حميري. وفوق ذلك كان الهمداني قد شارك همدان شرف قتل ابن الفضل في معركة عقان التي قتل فيها زعيم بكيل الدعام، القرمطي ابن الفضل. وبالنسبة للزيدية في صعدة كان الهمداني يرى أنها سلطة خارجية ذات أصل عدناني موجود في غير مكانها. القائد الوحيد الذي كان يمكنه أن يدعمه هو ابن الضحاك، رغم أنه من حاشد وليس من بكيل، لكنه كان بالنسبة له يمثل همدان، فبالنسبة للهمداني لم يكن يمثل القحطانية والوطنية اليمنية سوى العصبية لهمدان. كان الهمداني يعكس العصبية الضيقة لهمدان، ويشاركها طموحها في أن تكون لها السيادة الكاملة على اليمن. ويؤيد هذا واقع همدان التي تنتشر على معظم أراضي اليمن المرتفعة خاصة في الشمال.

في حياة الهمداني كانت هناك أيضاً دولتان أخريان هما دولة ابن زياد في تهامة، ودولة الفاطمية الإسماعيلية التي يتزعمها الداعي ابن حوشب في جبل مسور ووادي لاعة. وبالنسبة للهمداني لم يكن يؤيد هذه السلطة لأنه يعتبر بني زياد أسرة حاكمة دخيلة على اليمن، إضافة إلى أن تهامة كانت دولة في حد ذاتها. وذلك الافتراض بأن ابن زياد كان من وراء خروج الهمداني من السجن أمر لم يعترف به الهمداني. وفوق ذلك وعلى حسب قول القاضي محمد الأكوع بأن اتفاقا كان بين الدولة الزيادية والزيدية، واليعفريين بغض النظر عن تنافسهم. وهذا يضع الهمداني ضد الأطراف الثلاثة. إضافة إلى ذلك فهمدان لم تقبل أي سلطة تأتي من تهامة طوال تاريخ اليمن الوسيط سواء كانت زيادية أو نجاحية أو مهدية.

أما بالنسبة لابن حوشب فقد أرسل إلى اليمن مع ابن الفضل من قبل الدعوة الفاطمية للإمام الحسيني المستور، الجد الأول للخليفة الفاطمي عبد الله المهدي. كان ابن حوشب شيعي من الكوفة ينتسب إلى أسرة عقيل بن أبي طالب،

وبوصوله إلى عدن لاعة في 268هـ، حرص على الزواج بابنة الداعي الشيعي السابق في اليمن أحمد بن عبد الله بن خالق واكتسب بعد ذلك مكانة وهيبة في قبيلة همدان اليامية، بعد ذلك عاش في مصنعة، غرب صنعاء وفي كوكبان في الوقت الذي كان ابن خالق قد حبس وقتل على يد الحاكم اليعفري. تمسكت يام بدعمها لابن حوشب، الذي بدوره سيطر على جبل مسور، وتمركز فيه ، ومن هناك نشر دعوته وسلطته على منطقة كوكبان. وانضم إلى ابن الفضل، الذي كان يتحرك في خنفر، بعد أن نجح في أخذ صنعاء ومعظم شمالي وغربي اليمن، خلال مدة حياته منذ 302هـ. وكان نجاحه الاستثنائي عائد إلى حماسة قبيلة يام الهمدانية لحقيقة توجه الخلافة الفاطمية إلى تأسيس دولتها في اليمن، الأمر الذي سيجعل اليمن مركزا للعالم الإسلامي. لقد قال الحسين، خليفة المهدي، في تعليماته لأبي القاسم بن حوشب: "يا أبا القاسم! البيت يماني، والركن يماني والكعبة يمانية، ولن يقوم هذا الدين ويظهر إلا من قبل اليمن". وحتى الداعي عبد الله الشيعي الذي أسس فيما بعد الخلافة الفاطمية في شمال أفريقيا، كان قد أرسل سابقا إلى اليمن.

وفي المقر الرئيسي في سلمية بسوريا، انتفض القرامطة ضد المهدي محتجين على رحيله، غير المتوقع إلى مصر. آنذاك قرر التوجه إلى المغرب بدلا عن اليمن. وكان السبب وراء قراره توجهه إلى المغرب بدلا عن اليمن هو النجاح الكبير الذي حققه أبو عبد الله الشيعي في المغرب، إضافة إلى أن بعد المكان، جعله يعتقد أنه سيكون أكثر أمنا من ملاحقة السلطة العباسية مقارنة باليمن. كان ذلك القرار خرقا للعقيدة في اليمن، كما نتج عنه انشقاق الداعي فيروز، الذي ترك المهدي في مصر وقدم اليمن. ابن الفضل أيضا كان متحمسا لليمن، لذلك فقد خرج على المهدي وانضم إلى حركة القرامطة.

كانت نظرة الهمداني لابن الفضل كما ألمحنا سابقا، أما بالنسبة لنظرته لابن حوشب،الذي ظل مواليا لابن المهدي، ولنفوذه في منطقة مسار، فقد التزم الهمداني الصمت. بعد موت ابن حوشب سنة 302هـ، لم تستمر الدعوة الفاطمية في اليمن، إذ حجم نشاطها السياسي من قبل المهدي الفاطمي بغرض التركيز على الشمال الأفريقي، ومشروع احتلال مصر. وهكذا أصبحت اليمن منطقة للمرتدين أو المنشقين من الفاطميين. وفقدت الدعوة الفاطمية في اليمن داعميها من همدان. ومن الطبيعي أن مؤلفنا الهمداني بدوره لم يكن يؤيد الفاطميين، وكما عرضنا سابقا كان موقفه من الداعي ابن الفضل والحركة القرمطية

عدائيا؛ لكن الغريب في الأمر هو صمت الهمداني بشأن الدعوة الفاطمية لابن حوشب وخلفائه! هل كان ذلك الصمت بفعل دعم يام الحاشدية الهمدانية للدعوة الفاطمية ولو لمدة مؤقتة من الزمن.

بعد حوالي 80 سنة من وفاة الهمداني، أي من (350- 430هـ) انتقلت زعامة همدان من ريدة إلى كوكبان ومسار بزعامة الأسرة الصليحية، المنحدرة من يام من حاشد من همدان. ومرة أخرى خلال هذه المدة كان الخليفة الفاطمي قد لمع نجمه في الشمال الأفريقي، وكانت مصر قد بدأت في السقوط، وظهرت الدولة السلجوقية في المشرق، واستمر عصيان الزيرية في الشمال الأفريقي وبدأت الإمبراطورية الإسلامية تتلاشى بالتدريج. كانت تلك الأوضاع قد جعلت الخليفة الفاطمي المستنصر (427- 487هـ)، يصعد من اهتمامه السياسي بالدعوة الفاطمية في اليمن، التي بدأت تصبح قاعدة سياسية ذات أهمية خاصة، وكان داعيه في اليمن في ذلك الوقت هو سليمان بن عبد الله بن عامر الزواحي من حمير، الذي كان يمتلك حصن كوكبان. وكان الزواحي رجلا ذا مال وجاه. وعبره انتقلت الدعوة الفاطمية إلى الأسرة الصليحية التي انتصرت للفاطميين.

خلف الزواحي أمور الدعوة الفاطمية لعلي بن محمد الصليحي وأعطاه المال ودعمه بالرجال، فأعلن الصليحي دعوته سنة 429هـ، وبدأ بالتوسع في سنة 439هـ، حتى لم تأت سنة 455هـ حتى أصبح مسيطرا على اليمن كله واتخذ من صنعاء عاصمته. كتب عبارة يقول: "ولم تخرج سنة خمس وخمسين وما بقي عليه من اليمن سهل ولا وعر ولا بر ولا بحر إلا فتحه وذلك أمر لم يعهد مثله في جاهلية ولا إسلام."

كان ذلك النجاح الذي حققه الصليحي ممكنا مع الدعم الذي قدمته له همدان، ويعد ذلك مثالا آخر لطموح همدان واستعدادها للسلطة، فكان أن استقرت قيادتها في الأسرة الصليحية.

لم يكن علي الصليحي يلعب دور الخادم المطيع للفاطميين في مصر، وفي السنة التي توفي فيها 459هـ كان قد خطط للذهاب لمصر كمنقذ لتلك الدولة من فترة طويلة من الفوضى السياسية والاقتصادية، الدور الذي لعب فيما بعد على يد بدر الجمالي. كان الصليحيون حريصين على إبقاء علاقتهم مع الفاطميين جيدة ماداموا يستمدوا منهم القوة والمكانة. وعندما انشقت الدعوة

النزارية عن الفاطمية في مصر سنة 487هـ، بقيت الدولة اليمنية موالية لمصر، لكن عندما بدأت مصر تتدخل في الشؤون اليمنية من خلال إرسال ابن نجيب الدولة على أساس أنه داعي اليمن، والمراقب لأحوال اليمن، قررت الملكة أروى الصليحية أن الوقت قد حان للحد من الروابط بين اليمن ومصر. وفي مناسبة وفاة الخليفة العامر سنة 524هـ، واختفاء ابنه الطيب، سنحت الفرصة للملكة أو تختار موالاة الخليفة الغائب الطيب، فما لبثت أن أعلنت ولائها للخليفة الطيب غير الموجود، مقابل رفضها للخليفة الحافظ. وباتخاذ موقف الواقفية تمكنت الملكة من جعل اليمن مستقلة عن مصر.

ومع ذلك، لم تكن همدان موحدة في تلك الفترة. فملك همدان في صنعاء والزريعية في عدن، كانوا يتحدرون من يام من همدان وكلاهما كان يؤيد الدولة الفاطمية ودعوتها الحافظية، بينما الدعوة الطيبية ممثلة في مركزها الجديد في حراز تمسكت باستقلال همدان واليمن عن الدولة الفاطمية بقيادة أسرة همدانية جديدة هي الأسرة اليعفرية بقيادة سبأ بن يوسف اليعفري الهمداني. وحتى الدعوة الطيبية نفسها حافظت على القيادة الهمدانية، ممثلة في أسرة همدانية خلال ثلاثة دعاة متعاقبين منها هم؛ إبراهيم، وحاتم، وعلي.

وعلى الرغم من أن الحكام الهمدانيين في صنعاء وعدن وحراز كانوا متقسمين، إلا أنهم كانوا يحترمون سيادة الملكة أروى طوال مدة حياتها. ولم تندلع الصراعات فيما بينهم إلى بعد وفاتها سنة 532هـ، ومع ذلك فقد اجتمعوا ثانية في سنة 569هـ لحماية اليمن من الاحتلال الأيوبي الآتي من الخارج.

عندما نجح الاحتلال الأيوبي لليمن انتهت دولة الهمدانيين في صنعاء والدولة الزريعية في عدن، وكذلك انتهت الدعوة الحافظية، حيث لم يعد لها معنى بسقوط الخلافة الفاطمية في مصر، أما الدعوة الطيبية في حراز فقد عاشت بسبب موقفها الواقفي، وكذلك نتيجة تعاونها مع الأيوبيين. لم يكن هناك فرق في العلاقة والتسامح مع الدعوة خلال حكمي توارنشاه (569- 577هـ) وطغتكين (577- 593هـ)، أما خلال حكم الملك المعز إسماعيل (593- 598هـ)، فقد لاحظنا أن العلاقة أصبحت أكثر دفئاً بين الطرفين، إلى درجة أن مؤلف كتاب "السمط الغالي" اتهم الأيوبيين بتبني المذهب الطيبي، واتهم المعز بالجنون! لم تتقبل همدان هذا التعاون بين الطرفين فانسحبت من موقفها الداعم للدعوة الطيبية.

كانت سلطة همدان على اليمن ممزقة خلال حكم كل من الأيوبيين، والرسوليين، والمماليك والعثمانيين. في ذلك الوقت وجدت همدان أن العنصر الذي استمر في جعل اليمن يقاوم الحكم الخارجي ويتمسك باستقلاليته هو الإمامة الزيدية، لذلك بدأ يلتف حولها في مراحل مختلفة من تاريخ اليمن. في مراحل مختلفة من تاريخ اليمن رأينا همدان تتبنى عدداً من المذاهب؛ الزيدي، الفاطمي، الشافعي، لكن ما لاحظنا هو أن تلك المذاهب لم تكن سوى أرضية حاولت همدان من خلالها الاحتفاظ بسيطرتها على الساحة السياسية لليمن في مراحل مختلفة من تاريخيها، ومهما كان المذهب الذي اتخذته همدان، فقد كان هدفها الرئيس هو ربط همدان بالتوجه الدائم للحفاظ على استقلالية اليمن. لقد قرنت همدان نفسها دائما بمشاعر الاعتزاز بالانتماء إلى قحطان، وبحرية اليمن بقيادة همدان. كان ذلك هو الحافز الدائم من وراء تمسكهم الوقتي بمذهب ما. كان هذا هو أيضا مذهب الهمداني طوال رحلة حياته.

في خلال محاولاتي المستمرة للبحث عن الحافز الحقيقي وراء دعم همدان للضحاك ومعارضتها للعناصر الأخرى، كانت العصبية هي المبرر، حتى في تاريخ همدان المتأخر. إن نظرية ابن خلدون حول العصبية أو التلاحم الاجتماعي أو إرادة الناس لم تكن ظاهرة فحسب في همدان، بل كانت عصبية همدان متجددة، وتعيد بناء نفسها، بعد كل انهيار. وبعبارة أخرى كانت الدولة الهمدانية في اليمن تستمر في النهوض بعد أفول سلطة همدانية سابقة. السؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: هل ما زالت همدان الآن تواصل دورها الذي لعبته عبر التاريخ اليمني، أم أن عصبيتها في الوقت الحاضر هي من نوع مختلف، نوع أصبح يحمل معاني الوطنية الحديثة، الوطنية البناءة؟ إن بقاء همدان في القيادة يعتمد بشكل كبير على ذلك.